كيمياء السعادة

لحجة الإسلام أبو حامد الغزالي

دراسة وتحقيق وتعليق

محمد عبد العليم

مكتبة الساعي

الرياض تليفون ٤٢١٥٦٣٦-٤٢١١٤٣٤

ص.ب: ٥٠٦٤٩ - الرياض: ١١٥٣٣

مكتبة القرآن

للطبع والنشر والتوزيع

٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق

القاهرة - ت: ٧٦١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١

جميع الحقوق محفوظة
لمكتبة القرآن

دراسة وتحقيق

أولاً : المؤلف : حجة الإسلام الغزالى :

* روح عصـــره .
* معالم حياتــه .
* مؤلفاتــه .

ثانياً : الكتـاب : كيميــاء السعــادة :

* نسبة الكتاب إلى الغزالى .
* التمييز بين النص العربى والنص الفارسى .
* تاريخ تأليفه .
* مضمـون الكتــاب .
* أسلوب الغزالى فى هذا الكتاب .
* مخطوطــات الكتــاب .
* ترجمات الكتــاب .
* الطبــع .
* منهــج التحقــيق .

أولاً المؤلف
حجة الإسلام الغـزالى
(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١ م)

* **روح عصــره :**

لعل أفضل ما نلجأ إليه فى الكلام عن روح أى عصر من العصور ، هو أهل ذلك العصر . ولذا فإننا نلجأ فى هذا الصدد إلى الإمام الغزالى ، الذى يعد أكثر علماً ودراية بروح عصره من أى شخص آخر .

قد كان العالم الإسلامى – إبان نشأة الغزالى – يموج بمختلف الأفكار وشتى المذاهب والفرق . وبالرغم من تنوع وتعدد التيارات السائدة آنذاك ، إلا أن الغزالى قد حصرها فى اتجاهات أربعة :

١ – **المتكلمين** : وهم يدعون أنهم أهل الرأى والنظر .
٢ – **الباطنية** : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .
٣ – **الفلاسفة** : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .
٤ – **الصوفية** : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة[١] .

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال ، طبعة مكتبة الجندى ، ص ٣٣ .

تلك هى الاتجاهات الأساسية الأربعة التى كانت سائدة فى عصر الغزالى . وقد توصل الغزالى من خلال تحليله لتلك التيارات ولمختلف المظاهر العقلية والحضارية فى عصره ، إلى أن المجتمع الإسلامى إبان ذلك كان فى حالة من التدهور الفكرى والسلوكى ، لاسيما وقد انتشرت عند بعض طوائف الصوفية والباطنية كثير من النوازع والميول الإباحية . أما المتفلسفون ، فكانوا يعيشون فى أبراجهم العاجية ، ويرون أن الدين أمر يخص الجمهور وحدهم ، مما أدى بهم إلى عدم الجدية تجاه التكاليف الشرعية . أما رجال الدين فقد كانوا نماذج سيئة وقدوات منحطة لسائر الناس ؛ ذلك أنهم كانوا يتهاونون فى الالتزام بالتعاليم الإسلامية ، ويلقون بأنفسهم فى أحضان الملوك والأمراء ، ويتشبثون بأهدابهم[1] . فقد كانوا لا يطلبون العلم للعلم ، بل كانوا يتخذون منه وسيلة للتقرب إلى أصحاب السلطان إلا من رحم الله تعالى .

وقد بحث الإمام الغزالى عن القوى الإيجابية التى كان يمكن أن تقف فى مواجهة قوى الانحلال والسلبية ، إلا أنه لم يجد شيئاً من هذا . فالأطباء – الذين كان من المفروض أن يكافحوا تلك الأمراض – قد مرضوا ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، « **وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك** »[1] .

* **معالم حياته**[3] :

هو محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى ، أبو حامد ، حجة الإسلام .

---

(١) الغزالى : فاتحة العلوم ، ص ٤٧ . (٢) الغزالى : المنقذ من الضلال ، ص ٩١ .

(٣) عن الدراسة التى قدم بها الأستاذ / محمد عثمان الخشت لكتاب « المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » .

ولد فى طوس – المدينة العامرة آنذاك بالعلم والعلماء . ونشأ فى أسرة متوسطة الحال ، متمسكة بالإسلام .

قرأ شيئاً من الفقه فى طوس على أحمد بن محمد الراذكانى . وسافر إلى جرجان إلى الإمام أبى نصر الإسماعيلى ، وعلق عنه « **التعليقة** » فى الفقه . ورجع إلى طوس .

قدم نيسابور فى صحبة مجموعة من طلبة العلم من مدينة طوس ، ولازم إمام الحرمين . وبعد وفاته خرج الغزالى إلى المعسكر قاصداً الوزير نظام الملك ، فناظر الأئمة وقهرهم ، ولقى التعظيم من نظام الملك . والمعسكر كان ميداناً فسيحاً بجوار نيسابور أقام فيه نظام الملك معسكره .

توجه للتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد بتكليف من نظام الملك (٤٨٤ هـ جمادى الأول) .

بدخول شهر رجب عام ٤٨٨ هـ بدأت أزمته الروحية التى استمرت ستة أشهر أى حتى أوائل عام (٤٨٩ هـ) . وفى شهر ذى القعدة سنة (٤٨٨ هـ) ترك التدريس فى المدرسة النظامية ، وسلك طريق الزهد والانقطاع . وفى ذى الحجة خرج من بغداد مظهراً العزم على الخروج إلى مكة للحج ، وهو يدبر فى نفسه السفر إلى الشام . وقد استناب أخاه أحمد فى التدريس بنظامية بغداد .

ودخل دمشق فى بداية سنة (٤٨٩ هـ) ، فلبث فيها مدة فى مسجد دمشق معتكفاً فى منارته الغربية مغلقاً بابها على نفسه . ثم ذهب إلى بيت المقدس يدخل كل يوم الصخرة مغلقاً بابها على نفسه . ثم توجه إلى الخليل لزيارة مقام إبراهيم عليه السلام .

وفى أواخر سنة (٤٨٩ هـ) رجع إلى دمشق ، واعتكف

بالمنارة الغربية من الجامع الأموى ، فكان يصعد المنارة الغربية طول النهار ويغلق بابها على نفسه ، وظل فى دمشق حتى ذى القعدة عام (٤٩٠ هـ) .

ثم ذهب لأداء فريضة الحج وزيارة رسول الله ﷺ .

وفى الشهور الخمسة من عام (٤٩٠ هـ) مرّ ببغداد فى طريقه إلى خراسان ، ولكنه لم يقم طويلاً فى بغداد ، ولم يستأنف التدريس بالنظامية .

ومضى إلى خراسان ، ودرّس مدة بطوس ، ثم ترك التدريس والمناظرة ، واشتغل بالعبادة ، وآثر العزلة ، وتصفية القلب بالذكر . لكن حوادث الزمان ومهمّات العيال وضرورات المعاش كانت تغير فيه وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة ، ودام على هذه الحال قرابة تسع سنين .

فى شهر ربيع الآخر سنة (٤٩٨ هـ) عين سنجر – فخر الملك على بن نظام وزيراً له فى خراسان ؛ فألح على الغزالى فى معاودة التدريس ، فلم يجد بُدًّا من الإذعان ، وعاد إلى التدريس فى نظامية نيسابور ، لا فى نظامية بغداد ، إذ كان فخر الملك وزيراً فى نيسابور لسنجر حاكم خراسان من قبل أخيه محمد بن ملكشاه .

ثم عاد إلى بيته ، واتخذ فى جواره مدرسة للطلبة وخانقاه للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف الحاضرين : من ختم القرآن ، ومجالسه ذوى القلوب ، والقعود للتدريس ؛ بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات مَنْ معه عن فائدة .

بعد عمر دام خمساً وخمسين سنة ، كان شاغله فيه العلم والعمل ، والتصنيف ، والدعوة إلى سبيل الله – توفى الإمام الغزالى ،

وذلك فى يوم الاثنين الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة سنة (٥٠٥ هـ) الموافق ١٨ ديسمبر سنة (١١١١ م) . وكان وفاته بطوس ، ودفن بظاهر قسبة الطابران[١] .

* **مؤلفاتــه :**

خلّف لنا الإمام الغزالى آثاراً مرموقة فى مجالات عديدة . وتدل مؤلفاته على حسن التصنيف ، وجودة العبارة ، وبراعة التنسيق ، وغزارة المادة العلمية ، وخصوبة الفكر ، وقوة العقيدة .

والباحث فى مصنفات الغزالى يكتشف أنه بإزاء شخصية متعددة الجوانب ، فقد شملت مؤلفاته معظم العلوم والمعارف السائدة فى عصره .

ففى مجال الفقه نجده ألف كتباً عديدة ، مثل « **الوسيط** » و « **الوجيز** » و « **الخلاصة** » . وله فى أصول الفقه « **المستصفى** » .

وفى مجال المنطق نجد له كتاباً مشهوراً هو « **معيار العلم** » وفى مجال الفلسفة له « **مقاصد الفلاسفة** » و « **تهافت الفلاسفة** »

وفى التصوف له مؤلفات كثيرة ، أهمها « إحياء علوم الدين » و « منهاج العابدين » و « الرسالة اللدنية » . وللغزالى كتب كثيرة غير تلك التى ذكرناها فى مجالات أخرى متنوعة ، ليس هنا مجال حصرها . ولكن يكفى أن نشير إلى أن الكتب المقطوع بصحة نسبتها

---

(١) إتحاف السادة المتقين ١ : ١١ ، والأعلام ٧ : ٢٢ ، ووفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ ، وشذرات الذهب ٤ : ١٠ ، والوافى بالوفيات ١ : ٢٧٧ ، ومفتاح السعادة ٢ : ١٩١ – ٢١٠ ، وتبيين كذب المفترى ٢٩١ – ٣٠٦ ،ودراسة الأستاذ : الخشت للمقصد الأسنى ص ٧ – ٨ ، طبعة مكتبة القرآن .

إلى الغزالى تبلغ ٧٢ كتاباً ، والكتب التى يدور شكٌّ فى صحة نسبتها إليه حوالى ٢٣ كتاباً . وإذا أراد القارىء تفصيلاً وافياً بمؤلفات الغزالى فله أن يرجع إلى :

M. Beuyges, Essai de chronologie des oeuvres de al Ghazali. Beyrauth 1959.

(٢) د . عبدالرحمن بدوى : مؤلفات الغزالى . القاهرة ١٩٦١ م .

ثانياً : الكتاب

* **نسبة الكتاب إلى الغزالى :**

أسنده المرتضى إلى الغزالى ؛ حيث ذكر (« الإتحاف » جـ ١ ص ٤٢ س ١٤ وما يليه – راجع الملحق برقم ٥٣) أنه يوجد ، إلى جانب النص الفارسى الكبير ، نص عربى صغير فى أربعة كراريس وعنده نسخة منه ، يقول : « كيمياء السعادة والعلوم » بالفارسية ، وهو كتاب كبير ، يقال إنه ترجم فيه كتاب « الإحياء » . وقد رأيته بمكة ... وكتاب آخر صغير بالعربية نحو أربعة كراريس سماه كذلك ، وهو عندى » .

كما أسنده إليه ما سينيون فى كتابه : « مجموع نصوص غير منشورة خاصة بتاريخ التصوف فى بلاد الإسلام » ، ص ٩٣ .

وإذا كان « بويج » يشك فى أن يكون النص العربى كتبه الغزالى نفسه ، فهذا لا أساس له من الصحة ؛ ذلك أن الناظر بإمعان فى هذا الكتاب – أعنى « كيمياء السعادة » النص العربى الصغير – يجد أن أسلوبه وطريقة تأليفه والآراء المبثوثة فيه متفقة تماماً مع سائر مؤلفات الغزالى . ولعل الاتفاق بين هذا المؤلف والمؤلفات الأخرى فى الأسلوب والآراء خير دليل على صحة نسبته إلى الغزالى . وفضلاً عن ذلك فقد ورد فى الكم الهائل من مخطوطات الكتاب الموجودة

فى مكتبات العالم – إجماع على نسبة الكتاب لحجة الإسلام الغزالى .

* **التمييز بين النص العربى والنص الفارسى :**

يلاحظ أن « كيمياء السعادة » النص العربى الصغير – الذى بين أيدينا الآن – يختلف كلية عن « كيمياى سعادت » (فارسى) ؛ فذلك الأخير كتاب كبير يشابه « إحياء علوم الدين » حتى يمكن أن يقال إنه المقابل الفارسى للنص العربى « للإحياء » . ويتألف النص الفارسى « كيمياى سعادت » من أربعة أركان :

(الركن الأول) فى العبادة وهو عشرة أصول .

(الركن الثانى) فى آداب المعاملة وهو أيضاً عشرة أصول .

(الركن الثالث) فى رؤية عقبات الطريق وهو أيضاً عشرة أصول .

(الركن الرابع) فى المنجيات وهو أيضاً فى عشرة أصول .

* **تاريخ تأليفه :**

مما لا ريب فيه أن كتاب « كيمياء السعادة » النص العربى ، من كتب الغزالى التى ألفها فى مرحلة متأخرة من حياته ، بعد اهتدائه إلى نظرية الكشف ، ووصوله إلى مرحلة الازدهار الفكرى ، والصفاء الروحى والوجدانى .

وإذا أردنا تاريخاً محدداً لتأليف كتاب « كيمياء السعادة » فقد توصل الأستاذ ماسينون فى كتابه « مجموع نصوص غير منشورة خاصة بتاريخ التصوف فى الإسلام » (باريس : سنة ١٩٢٩) أنه أُلِّفَ فى الفترة من بين ٤٩٢ – ٤٩٥ هـ . ومن مؤلفاته فى تلك الفترة كتاب « الإحياء » (وقد بدأه قبل ذلك) ، وكتاب « المستصفى » ، وكتاب « منهاج العابدين » .

* **مضمون الكتـاب :**

موضوع كتاب « كيمياء السعادة » النص العربى ، هو إرشاد الناس إلى طرق تحصيل السعادة ، وتعليمهم كيفية تطهير القلب من الأخلاق المذمومة وتحليته بصفات الملائكة . وهو يتناول ذلك من خلال التحدث عن معرفة النفس ، وحقيقة القلب ، وحكمة خلقه ، ومعرفة عساكره ، وبيان الأمور التى تُبنى عليها السعادة ، وعجائب القلب وأحواله ، ومطالعة عالم الملكوت ، وبيان اللذات وتفاوتها وذكر أعظمها ... إلى غير ذلك من الموضوعات الهامة .

* **مخطوطات الكتاب :**

يوجد لكتاب « كيمياء السعادة » النص العربى مخطوطات كثيرة فى مكتبات العالم ، نذكر منها :

(١) دار الكتب المصرية ضمن مجموعة فيها « مشكاة الأنوار » و « أيها الولد » ط ١ جـ٢ ص ١٠٩ (برقم ١٨٤ تصوف) .

(٢) دار الكتب المصرية ط ٢ ١ : ٣٥٠ .

(٣) دار الكتب المصرية برقم ٢٥٣ تصوف من ورقة ٦٦ أ – ٧٧ أ .

(٤) دار الكتب المصرية ، تصوف طلعت ، ضمن مجموعة (فى ٩ ورقات) برقم ٧٢٢ .

(٥) برلين ٣١٣٢ .

(٦) أيا صوفيا ٢٠٢٣ / ٥ .

(٧) الفاتح ٢٧٩٩ / ٢٨٠٠ .

(٨) كوبريلى ٧٦٩ .

(٩ الظاهرية : عام ٥٦١٠ ، ٥٧٣٥.

(١٠) مانشستر فهرس منجانا ص ٧٩ بعنوان : كتاب معرفة عنوان النفس ، برقم ٧١ (٣٦٤) ورقة ١٣١ – ١٤١ .

(١١) رامفور ١ : ٣٦٢ [٢٨٢ب] ، ٣٦٤ [٢٥٨] .

(١٢) نورى عثمانية ٢٥٣٢ / ٨ .

* ترجمات للكتاب :

تُرجم « كيمياء السعادة » إلى لغات عديدة ، نذكر منها :

(١) التركية : وتوجد منها مخطوطة فى درسدن برقم ١٥ ، وأبسالا برقم ٤٦٠ ؛ وطبعت فى استانبول سنة ١٢٦٠ ، وقد قام بها مصطفى الوانى (المتوفى سنة ١٠٠٠ هـ/ ١٥٩١ م) .

(٢) وعن التركية ترجم إلى الانجليزية :

H.A. Homes: Tbe Alcbbemy of Happiness, by M. al-Chazzali the Mohammedan philosopher, albany new york 1873.

(٣) وإلى الأُردية فى لوكنو سنة ١٣١٣ .

(٤) وإلى الإنجليزية أيضاً (عن الهندستانية) :

Al-Chazzali : Tbe Alcbemy of Happiness, Mendered into English by Cl. Field (wisdom of the East), London 1910.

(٥) وإلى الألمانية عن النصين الفارسى والعربى مختصراً :

Das Elixir der Gliickseligkeitaus pers. U. arabischen Quellen, in Auswahl übersetzt von H. Ritter. Jena, 1923.

* الطبـع :

طبع النص العربى ضمن مجموعة رسائل فى القاهرة سنة ١٣٢٨ ، سنة ١٣٤٣ ، سنة ١٣٩٣ هـ .

ولاحظت على هذه الطبعات أنها حافلة بكثير من الأخطاء والتحريفات والتصحيفات الخطيرة . هذا بالإضافة إلى أن كلماتها تنساب بعضها وراء بعض ، دون رعاية للفواصل وعلامات الترقيم ، مما يجعل معانى العبارات والجمل تتداخل بعضها فى بعض ؛ فلا يستطيع القارىء أن يتابع قراءتها على هذا الحال وهو لا يدرى أين يبتدىء ولا أين ينتهى .

* منهج التحقيق :

١ – قمت برفع الأخطاء الموجودة فى الأصول ، وخلصتها من شوائب التصحيف والتحريف ، وكتبت الكتاب وفقاً لقواعد الإملاء المعاصرة ، ونسقته ، ورتبته ، وقسمته إلى جمل وفقرات ؛ حتى يعرف القارىء أين يبتدىء ، وأين ينتهى .

٢ – خرجت الآيات القرآنية .

٣ – خرجت الأحاديث النبوية تخريجاً علمياً .

٤ – شرحت الألفاظ الغريبة ، والمصطلحات التى يحتويها الكتاب .

٥ – علقت على بعض المواضع التى اقتضت التعليق .

٦ – معظم الفصول التى كتبها الإمام الغزالى ليس لها عناوين ؛ ولذا فقد وضعت العناوين المناسبة ، ورمزت لها بهذه العلامة(*) ؛ حتى أميزها عن العناوين التى وضعها الغزالى.

٧ – قدمت للكتاب بدراسة عن الإمام الغزالى وكتابه « كيمياء السعادة » الذى بين أيدينا الآن .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ..

محمد عبد العليم

القاهرة : شوال ١٤٠٧ هـ

يوليو ١٩٨٦ م

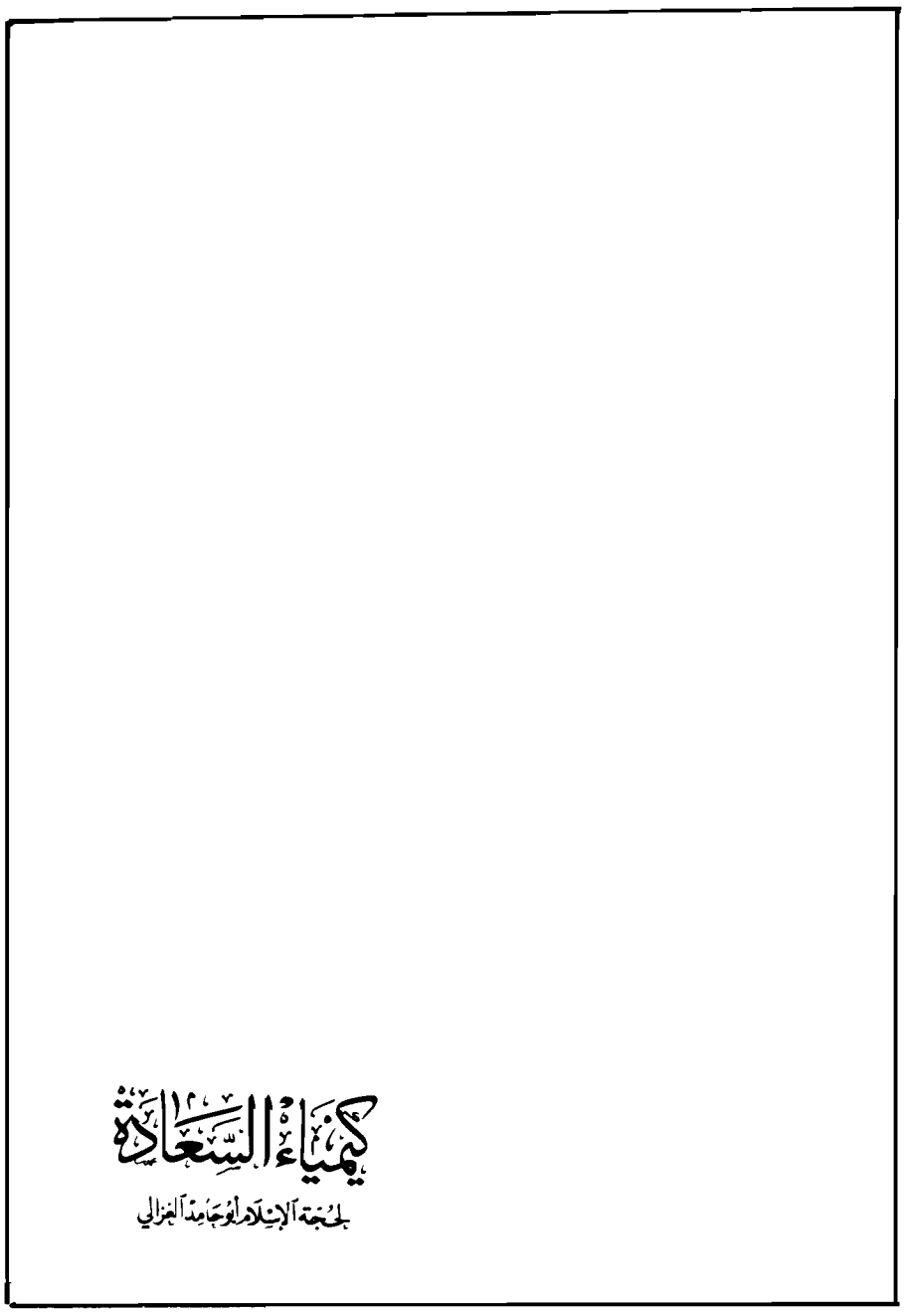
كيمياء السعادة
لحجة الإسلام أبو حامد الغزالي

بسم الله الرحيم الرحيم

الحمد لله الذى أصعد قوالب الأصفياء بالمجاهدة[1] ،
وأسعد قلوب الأولياء بالمشاهدة[2] ،
وحلى ألسنة المؤمنين بالذكر ،
وجلى خواطر العارفين بالفكر ،
وحرس سواد العباد عن الفساد ،
وحبس مراد الزهاد على السداد ،
وخلص أشباح المتقين من ظلم الشهوات ،
وصفى أرواح الموقنين عن ظلم الشبهات ،
وقبل أعمال الأخيار بأداء الصلوات ،
وأيد خصال الأحرار بإسداء الصلات ..
أحمده حمد من رأى آيات قدرته وقوته ،

---

(١) المجاهدة : فى اللغة : المحاربة ، وفى الشرع : محاربة النفس الأمّارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب فى الشرع .

(٢) المشاهدة : تطلق على رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، وتطلق بإزائه على رؤية الحق فى الأشياء ، وذلك هو الوجه الذى له تعالى بحسب ظاهريته فى كل شيء .

وشاهد الشواهد من فردانيته ووحدآنيته ،
وطرق طوارق سره وبـره ،
وقطف ثمار معرفته من شجر **مجده** وجوده ،
وأشكره شكر من اخترق واغترف من نهر فضله وإفضاله ،
وأومن به إيمان من آمن بكتابه وخطابه ، وأنبيائه وأصفيائه ، ووعده ووعيده ، وثوابه وعقابه ..
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله :
بعثه لأصلاب[1] الفسقة والفجرة قاصماً ،
ولعرى[2] الجاحدين والمارقين[3] فاصماً[4] ،
ولباغى الشك والشرك قاهراً ،
ولأتباع الحق والإحسان ناصراً ؛
فصلوات الله عليه ، وعلى آله ، وآصحابه أجمعين .

---

(١) الأصلاب : جمع صُلب ، يقال : هو من صلب فلان : أى من ذريته . وفى التنزيل العزيز : ﴿ **وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم** ﴾ والصلب أيضاً : فقار الظهر . وفى التنزيل : ﴿ **يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ . وله معان أخرى . والمراد هنا : فقار الظهر .

(٢) عرى : جمع عروة ، وهى من الدلو أو الكوز : مقبضه . و – من الثوب : مدخل زرِّه . و – ما يستمسك به ويعتصم (على المجاز) . وفى التنزيل العزيز : ﴿ **فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾ . والمراد هنا المعنى المجازى .

(٣) المارقون : جمع مارق ، وهوالخارج من دينه .

(٤) (فَصَمَ) الشيء – فصماً : شقَّه . و – صَدَعَهُ دون بينونة . و – العقدة : حَلَّها .

فصل فى معرفة النفس

اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس ، كما قال سبحانه تعالى :

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[1] .

وقال النبى ﷺ : « من عرف نفسه فقد عرف ربه »[2] .

وليس شيء أقرب إليك من نفسك ، فإذا لم تعرف نفسك ، فكيف تعرف ربك ؟

فإن قلت : إنى أعرف نفسى !

فإنما تعرف الجسم الظاهر ، الذى هو اليد والرجل والرأس والجثة ، ولا تعرف ما فى باطنك من الأمر الذى به إذا غضبت طلبت

---

(١) فصلت : ٥٣ .

(٢) لا يُعرف هذا الحديث مرفوعاً ، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازى – يعنى من قوله . وكذا قال النووى : إنه ليس بثابت . وقيل فى تأويله : من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء . انظر : السخاوى : « المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة » . دراسة وتحقيق : محمد عثمان الخشت ، إصدار دار الكتاب العربى ، حديث رقم ١١٤٩ .

الخصومة ، وإذا اشتهيت طلبت النكاح ، وإذا جعت طلبت الأكل ، وإذا عطشت طلبت الشرب .

والدواب تشاركك فى هذه الأمور .

فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة ؛ حتى تدرى أى شيء أنت ، ومن أين جئت إلى هذا المكان ، ولأى شيء خلقت ، وبأى شيء سعادتك ، وبأى شيء شقاؤك .

وقد جمعت فى باطنك صفات :

منها صفات البهائم ،
ومنها صفات السباع ،
ومنها صفات الشياطين ،
ومنها صفات الملائكة ،

فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب منك ، وعارية[1] عندك .

فالواجب عليك أن تعرف هذا ، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة .

فإن سعادة البهائم فى الأكل ، والشرب ، والنوم ، والنكاح ، فإن كنت منهم فاجتهد فى أعمال الجوف والفرج .

وسعادة السباع فى الضرب ، والفتك .

وسعادة الشياطين فى المكر ، والشر ، والحيل . فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم .

---

(١) العارية : ما تُعطيه غيرَك على أن يعيده إليك . يقال : كل عارة (أى عارية) مُستَرَدَّة .

وسعادة الملائكة فى مشاهدة جمال الحضرة الربوبية ، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق . فإن كنت من جوهر الملائكة ، فاجتهد فى معرفة أصلك ؛ حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية ، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال ، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب ، وتعلم أن هذه الصفات لأى شيء ركبت فيك ؛ فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها ، ولكن خلقها حتى تكون أسراك ، وتسخرها للسفر الذى قدامك ، وتجعل إحداها مركبك ، والأخرى سلاحك ؛ حتى تصيد بها سعادتك . فإذا بلغت غرضك فقاوم بها تحت قدميك ، وارجع إلى مكان سعادتك . وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية ، وقرار العوام درجات الجنة .

فتحتاج إلى معرفة هذه المعانى ؛ حتى تعرف من نفسك شيئاً قليلاً ؛ فكل من لم يعرف هذه المعانى فنصيبه من القشور ؛ لأن الحق يكون عنه محجوباً .

فصل
كيف تعرف نفسك ؟

إذا شئت أن تعرف نفسك ، فاعلم أنك من شيئين :

الأول : هذا القلب ،

والثانى : يسمى النفس والروح .

والنفس هو القلب الذى تعرفه بعين الباطن ، وحقيقتك الباطن ؛ لأن الجسد أول وهو الآخر ، والنفس آخر وهو الأول ، ويسمى قلباً .

وليس القلب هذه القطعة اللحمية التى فى الصدر من الجانب الأيسر ؛ لأنه يكون فى الدواب والموتى . وكل شيء تبصره بعين الظاهر فهو من هذا العالم الذى يسمى عالم الشهادة .

وأما حقيقة القلب ، فليس من هذا العالم ، لكنه من عالم الغيب ؛ فهو فى هذا العالم غريب ، وتلك القطعة اللحمية مركبة ، وكل أعضاء الجسد عساكره وهو الملك ، ومعرفة الله ومشاهدة جمال الحضرة – صفاته ، والتكليف عليه ، والخطاب معه ، وله الثواب ، وعليه العقاب ، والسعادة والشقاء تلحقانه ، والروح الحيوانى فى كل شيء تبعه ومعه .

ومعرفة حقيقته ، ومعرفة صفاته ، مفتاح معرفة الله سبحانه وتعالى ؛ فعليك بالمجاهدة حتى تعرفه ؛ لأنه جوهر عزيز من جنس جوهر الملائكة ، وأصل معدنه من الحضرة الإلهية ، من ذلك المكان جاء ، وإلى ذلك المكان يعود .

فصل
ما حقيقة القلب ؟

أما سؤالك : **ما حقيقة القلب ؟**

فلم يجيء فى الشريعة أكثر من قول الله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل** الروح **من** أمر ربى ﴾[1] .. لأن الروح من جملة القدرة الإلهية ، وهو من عالم الأمر ، قال الله عن وجل :

﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾[2] .

فالإنسان من عالم الخلق من جانب ، ومن عالم الأمر من جانب ؛ فكل شيء يجوز عليه المساحة والمقدار والكيفية فهو من عالم الخلق . وليس للقلب مساحة ولا مقدار ؛ ولهذا لا يقبل القسمة ، ولو قبل القسمة لكان من عالم الخلق ، وكان من جانب الجهل جاهلاً ومن جانب العلم لماً ، وكل شيء يكون فيه علم وجهل فهو محال . وفى معنى آخر هو من عالم الأمر ؛ لأن عالم لأمر عبارة عن شيء من الأشياء لا يكون للمساحة والتقدير طريق إليه .

---

(١) الإسراء : ٨٥ .
(٢) الأعراف : ٥٤ .

وقد ظن بعضهم : « **آن الروح قديم** » فغلطوا .

وقال قوم : « **إنه عرض** »[1]، فغلطوا ؛ لأن العرض لا يقوم بنفسه ، ويكون تابعاً لغيره . فالروح هو أصل ابن آدم ، وقالب ابن آدم تبع له ؛ فكيف يكون عرضاً ؟!

وقال قوم : « **إنه جسم** » ، فغلطوا ؛ لأن الجسم يقبل القسمة . فالروح الذى سميناه قلباً ، وهو محل معرفة الله تعالى ، ليس بجسم ، ولا عرض ، بل هو من جنس الملائكة .

ومعرفة الروح صعبة جداً ؛ لأنه لم يرد فى الدين طريق إلى معرفته ؛ لأنه لا حاجة فى الدين إلى معرفته ؛ لأن الدين هو المجاهدة ، والمعرفة علامة الهداية كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾[2] . ومن لم يجتهد حق اجتهاده لم يجز أن يتحدث معه فى معرفة حقيقة الروح . وأول أس[3] المجاهدة أن تعرف عسكر القلب ؛ لأن الإنسان إذا لم يعرف العسكر لم يصح له الجهاد .

---

(١) العرض : ما قام بغيره ، ويقابل الجوهر والذات ، فالجسم جوهر واللون عرض . أو ما لا يدخل فى تقويم الذات كالقيام والقعود بالنسبة للإنسان . وفى « التعريفات » : هو الموجود الذى يحتاج فى وجوده إلى متحيز ، أى محل ، يقوم به ، كاللون المحتاج فى وجوده إلى جسم يحله ويقوم به .

(٢) العنكبوت : ٦٩ .

(٣) الأُسُّ – الإسُّ – الأُسُّ : الأساس . يقال : قلعه من أسه ، والجمع : إساس ، وآساس .

فصل
لماذا خُلق القلب ؟

اعلم أن النفس مركب القلب ، وللقلب عساكر ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾[1]

والقلب مخلوق لعمل الآخرة طلباً لسعادته ، وسعادته معرفة ربه عز وجل ، ومعرفة ربه تعالى تحصل له من صنع الله ، وهو من جملة عالمه ، ولا تحصل له معرفة عجائب العالم إلا من طريق الحواس ، والحواس من القلب ، والقالب مركبه . ثم معرفة صيده ، ومعرفة شبكته ، والقالب لا يقوم إلا بالطعام ، والشراب ، والحرارة ، والرطوبة . وهو ضعيف على خطر من الجوع والعطش فى الباطن ، وعلى خطر من الماء والنار فى الظاهر ، وهو مقابل أعداء كثيرة .

---

(١) المدثر : ٣١ .

فصل
معرفة عساكر القلب

وتحتاج أن تعرف العسكرين :

وذلك أن العسكر الظاهر هو : الشهوة والغضب ؛ ومنازلهم فى اليدين ، والرجلين ، والعينين ، والأذنين ، وجميع الأعضاء .

وأما العسكر الباطن ، فمنازله فى الدماغ ، وهو قوى الخيال ، والتفكر ، والحفظ ، والتذكر ، والوهم . ولكل قوة من هذه القوى عمل خاص . فإن ضعف واحد منهم ضعف حال ابن آدم فى الدارين .

وجملة هذين العسكرين فى القلب ، وهو أميرهما ؛ فإن أمر اللسان أن يذكر ذكر ، وأن أمر اليد أن تبطش بطشت ، وإن أمر الرجل أن تسعى سعت ، وكذلك الحواس الخمس حتى يحفظ نفسه ؛ كيما يدخر الزاد للدار الآخرة ، ويحصل الصيد ، وتتم التجارة ، ويجمع بذر السعادة .

وهؤلاء طائعون للقلب ، كما أن الملائكة طائعون للرب سبحانه وتعالى لا يخالفون أمره .

فصل
فى معرفة القلب وعسكره

اعلم أنه قيل فى المثل المشهور : إن النفس كالمدينة ، واليدين والقدمين وجميع الأعضاء ضياعها ، والقوة الشهوانية واليها ، والقوة الغضبية شحنتها[1] ، والقلب ملكها ، والعقل وزيرها . والملك يدبرهم حتى تستقر مملكته وأحواله ؛ لأن الوالى وهو الشهوة كذاب فضولى مخلط ، والشحنة – وهو الغضب – شرير قتال خراب . فإن تركهم الملك على ما هم عليه ، هلكت المدينة وخربت ؛ فيجب أن يشاور الملك الوزير ، ويجعل الوالى والشحنة تحت يد الوزير . فإذا فعل ذلك استقرت أحوال المملكة وتعمرت المدينة . وكذلك القلب يشاور العقل ، ويجعل الشهوة والغضب تحت حكمه ، حتى تستقر أحوال النفس ، ويصل إلى سبب السعادة من معرفة الحضرة الإلهية .

---

(١) الشِّحْنَةُ : العداوة والبغضاء . و – الجماعةُ يقيمها السلطان فى بلدٍ ما لضبطه . و – ما تشحن به السفينة ونحوها . و – ما يجمع من طعام ونحوه ليكفى وقتاً معلوماً .

ولو جعل العقل تحت يد الغضب والشهوة ، هلكت نفسه ، وكان قلبه شقياً فى الآخرة[1] .

(١) من الملاحظ أن الإمام الغزالى فى تقسيمه للنفس قد استفاد من أفلاطون ؛ ذلك أن أفلاطون فى محاورة « الجمهورية » يرى أن للنفس قوى ثلاثاً : الناطقة ، والغضبية ، والشهوانية . كما أننا نجد عند أفلاطون تشابها قوياً بين النفس والمدينة ؛ حيث إن للمدينة ثلاث وظائف : الإدارة ، والدفاع ، والإنتاج ؛ تقابل قوى النفس الثلاث المذكورة آنفاً .

فصـــل
وظيفة القلـب

اعلم أن الشهوة والغضب خادمان للنفس جاذبان يحفظان أمر الطعام والشراب والنكاح لعمل الحواس .

ثم النفس خادم الحواس شبكة العقل وجواسيسه يبصر بها صنائع البارىء جلت قدرته .

ثم الحواس خادم العقل ، وهو للقلب سراج وشمعة يبصر بنوره الحضرة الإلهية ؛ لأن الجنة وهى نصيب الجوف أو الفرج محتقرة فى جنب تلك الجنة .

ثم العقل خادم القلب ، والقلب مخلوق لنظر جمال الحضرة الإلهية .

فمن اجتهد فى هذه الصنعة ، فهو عبد حق ، من غلمان[1] الحضرة ، كما قال سبحانه وتعالى :

---

(١) الغِلْمان : جمع غُلام ، وهو الطارّ الشارب . و – الصبى من حين يولد إلى أن يشبّ ، ويطلق على الرجل مجازاً . و – الخادم .

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1] .

معناه : إنا خلقنا القلب ، وأعطيناه الملك والعسكر ، وجعلنا النفس مركبه ؛ حتى يسافر عليه من عالم التراب إلى أعلى عليين .

فإذا أراد أن يؤدى حق هذه النعمة ، جلس مثل السلطان فى صدر مملكته ، وجعل الحضرة الإلهية قبلته ومقصده ، وجعل الآخرة وطنه وقراره ، والنفس مركبه ، والدنيا منزله ، واليدين والقدمين خدامه ، والعقل وزيره ، والشهوة عامله ، والغضب شحنته ، والحواس جواسيسه . وكل واحد موكل بعالم من العوالم يجمع له أحوال العوالم . وقوة الخيال فى مقدم الدماغ كالنقيب[2] يجمع عنده أخبار الجواسيس ، وقوة الحفظ فى وسط الدماغ مثل صاحب الخريطة يجمع الرقاع من يد النقيب ويحتفظها إلى أن يعرضها على العقل . فإذا بلغت هذه الأخبار إلى الوزير يرى أحوال المملكة على مقتضاها .

فإذا رأيت واحداً منهم قد عصى عليك ، مثل الشهوة والغضب ، فعليك بالمجاهدة ، ولا تقصد قتلهما ؛ لأن المملكة لا تستقر إلا بهما .

فإذا فعلت ذلك كنت سعيداً ، وأديت حق النعمة ، ووجبت لك الخُلعة فى وقتها ، وإلا كنت شقياً ، ووجب عليك النكال[3] والعقوبة .

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) النقيب : كبير القوم المعنىُّ بشئونهم . وفى التنزيل العزيز : ﴿ **وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً** ﴾ .

(٣) النكال : العقاب . وفى التنزيل الكريم : ﴿ **فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها** ﴾ و : ﴿ **جزاءً بما كسبا نكالاً من الله** ﴾ .

فصل
ثلاثة أشياء تُبنى عليها السعادة

تمام السعادة مبنى على ثلاثة أشياء :

(١) قوة الغضب ،

(٢) قوة الشهوة ،

(٣) قوة العلم .

فيحتاج أن يكون أمرها متوسطاً ؛ لئلا تزيد قوة الشهوة فتخرجه إلى الرخص فيهلك ، أو تزيد قوة الغضب فتخرجه إلى الجموح فيهلك .

فإذا توسطت القوتان بإشارة قوة العلم دلَّ على طريق الهداية ، وكذلك الغضب إذا زاد سهل عليه الضرب والقتل ، وإذا نقص ذهبت الغيرة والحمية فى الدين والدنيا ، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة . وكذا الشهوة إذا زادت كان الفسق والفجور ، وإن نقصت كان العجز والفتور ، وإن توسطت كان العفة والقناعة وأمثال ذلك .

فصـــل
أحوال القلب مع عسكره

اعلم أن للقلب مع عسكره أحوالاً وصفات ، بعضها يسمى أخلاق السوء ، وبعضها أخلاق الحسن .

فبالأخلاق الحسنة يبلغ درجة السعادة ، وبالأخلاق السيئة هلاكه وخروجه للشقاء .

وهذه كلها تبلغ أربعة أجناس :

(١) أخلاق الشياطين ،
(٢) أخلاق البهائم ،
(٣) أخلاق السباع ،
(٤) أخلاق الملائكة .

فأعمال السوء : من الأكل والشرب ، والنوم ، والنكاح ؛ هى أخلاق البهائم .

وكذلك أعمال الغضب : من الضرب ، والقتل ، والخصومة هى أخلاق السباع .

وكذلك أعمال النفس : وهى المكر ، والحيلة ، والغش ، وغير ذلك ؛ هى أخلاق الشياطين .

وكذلك أعمال العقل ؛ التى هى الرحمة ، والعلم ، والخير ؛ هى أخلاق الملائكة .

فصل
الأخلاق الحسنة والأخلاق القبيحة

واعلم أن فى جلد ابن آدم أربعة أشياء :

(١) الكلب ،
(٢) الخنزير ،
(٣) الشيطان ،
(٤) الملك .

والكلب مذموم فى صفاته ، وليس بمذموم فى صورته . وكذلك الشيطان والملائكة ، ذمهم ومدحهم فى صفاتهم ، وليس ذلك فى صورهم وخلقهم . وكذلك الخنزير مذموم فى صفاته ، وليس بمذموم فى خلقته .

وقد أمر ابن آدم بأن يكشف ظلم الجهل بنور العقل ؛ خوفاً من الفتنة ، كما قال النبى ﷺ : « **ما من أحد إلا وله شيطان ، ولى شيطان ، وأن الله قد أعاننى على شيطانى حتى أسلم** »[1] .

---

(١) مسلم : كتاب المنافقين ، حديث ٦٩ - ٧٠ . والترمذى : كتاب الرضاع ، باب ١٧ . والنسائى : نساء ٤ . والدارمى : كتاب الرقاق ،

وكذلك الشهوة والغضب ، ينبغى أن يكونا تحت يد العقل ، فلا يفعلا شيئاً إلا بأمره ، فإن فعل ذلك صح له حسن الأخلاق ، وهى صفات الملائكة ، وهى بذر السعادة . وإن عمل بخلاف ذلك ، فخدم الشهوة والغضب ، صح له الأخلاق القبيحة ، وهى صفات الشياطين ، وهى بذر الشقاء . فيتبين له فى نومه كأنه قائم مشدود الوسط يخدم الكلب والخنزير ، وكان مثله كمثل رجل مسلم يأخذ رجالاً مسلمين يحبسهم عند كافرين . فكيف يكون حالك يوم القيامة إذا حبست الملك – وهو العقل – تحت يد الشهوة والغضب ، وهما الكلب والخنزير ؟

= باب ٢٥ ، ٦٦ . وأحمد : الجزء الأول ، ص ٢٥٧ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ ، ٤٦٠ . والجزء الثالث ، ٣٠٩ .

فصـل
هل الصور تابعة للمعانى ؟

واعلم أن الإنسان فى صورة ابن آدم اليوم ، وغداً تنكشف له المعانى ، فتكون الصور فى معنى المعانى .

فأما الذى غلب عليه الغضب ، فيقوم فى صورة الكلب . وأما الذى غلب عليه الشهوة ، فيقوم فى صورة الخنزير ؛ لأن الصور تابعة للمعانى . وإنما يبصر النائم فى نومه ما صح فى باطنه . وإنما عرفت أن الإنسان فى باطنه هذه الأربعة ، فيجب أن يراقب حركاته وسكناته ، ويعرف من أى الأربعة هو ؛ فإن صفاته تحصل فى قلبه وتبقى معه إلى يوم القيامة . وإن بقى من جملة الباقيات الصالحات شىء فهو بذر السعادة ، وإن بقى معه غير ذلك فهو بذر الشقاء .

وابن آدم لا ينفك ولا ينفصل عن حركة أو سكون ، وقلبه مثل الزجاج ، وأخلاق السوء كالدخان والظلمة ، فإذا وصل إليه ذلك أظلم عليه طريق السعادة . وأخلاق الحسن كالنور والضوء ، فإذا وصل إلى القلب طهره من ظلم المعاصى ، كما قال رسول الله ﷺ :

« **أتْبِعِ السَّيئةَ الحسنةَ تَمْحُها** » [1] . والقلب إما مضيء أو مظلم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

(١) الترمذى : كتاب البرّ ، باب ٥٥ . والدارمى : كتاب الرقاق ، باب ٧٤ . وأحمد : الجزء الخامس ، ص ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ .

فصل
فى عجائب القلب

اعلم أن للقلب بابين للعلوم :

واحد للأحلام ،

والثانى لعالم اليقظة .

وهو الباب الظاهر إلى الخارج ، فإن نام غلق باب الحواس ، فيفتح له باب الباطن ويكشف له غيب من عالم الملكوت[1] ، ومن اللوح المحفوظ ؛ فيكون مثل الضوء ، وربما احتاج كشفه إلى شيء من تعبير الأحلام[2] . وأما ما كان من الظاهر ، فيظن الناس أن به اليقظة ، وأن اليقظة أولى بالمعرفة ، مع أنه لا يبصر فى اليقظة شيء من عالم الغيب ، وما يبصر بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة مما يبصر من طريق الحواس .

---

(١) عالم الملكوت : هو عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس . أما عالم الملك : فهو عالم الشهادة من المحسوسات الطبيعية .

(٢) أى تفسير الأحلام .

فصل
القلب مثل المرآة

وتحتاج أن تعرف فى ضمن ذلك أن القلب مثل المرآة ، واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضاً ؛ لأن فيه صورة كل موجود ، وإذا قابلت المرآة بمرآة أخرى حلت صور ما فى إحداهما فى الأخرى ، وكذلك تظهر صور ما فى اللوح المحفوظ إلى القلب إذا كان فارغاً من شهوات الدنيا ، فإن كان مشغولاً بها كان عالم الملكوت محجوباً عنه ، وإن كان فى حال النوم فارغاً من علائق الحواس طالع جواهر عالم الملكوت ؛ فظهر فيه بعض الصور التى فى اللوح المحفوظ .

وإذا أغلق باب الحواس كان بعده الخيال ؛ لذلك يكون الذى يبصره تحت ستر القشر ، وليس كالحق الصريح مكشوفاً . فإذا مات – أى القلب – بموت صاحبه لم يبق خيال ولا حواس . وفى ذلك الوقت يبصر بغير وهم وغير خيال ، ويقال له : ﴿ **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾[1] .

---

(١) ق : ٢٢

فصـل
متى يُحْجَب القلب عن مطالعة عالم الملكوت ؟

واعلم أنه ما من أحد إلا ويدخل فى قلبه الخاطر[1] المستقيم ، وبيان الحق على سبيل الإلهام[2] .

وذلك لا يدخل من طريق الحواس ، بل يدخل فى القلب ، لا يعرف من أين جاء ؛ لأن القلب من عالم الملكوت ، والحواس مخلوقة لهذا العالم « **عالم الملك** » . فلذلك يكون حجابه عن مطالعة ذلك العالم إذا لم يكن فارغاً من شغل الحواس .

---

(١) الخاطر : معرفة عفوية تخطر بالذهن لأول وهلة .

(٢) الإلهام : ما وقع فى القلب من علم ، وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ، ولا نظر فى حجة . وهو ليس بحجة عند العلماء ، إلا عند الصوفيين .

فصل
متى يطالع القلب عالم الملكوت ؟

ولا تظنن أن هذه الطاقة تنفتح بالنوم والموت فقط ، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة ، وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة .

فإذا جلس فى مكان خال ، وعطل طريق الحواس ، وفتح عين الباطن وسمعه ، وجعل القلب فى مناسبة عالم الملكوت ، وقال دائماً : « **الله – الله – الله** » بقلبه ، دون لسانه ، إلى أن يصير لا خبر معه من نفسه ، ولا من العالم ، ويبقى لا يرى شيئاً إلا الله سبحانه وتعالى – انفتحت تلك الطاقة ، وأبصر فى اليقظة الذى يبصره فى النوم ؛ فتظهر له أرواح الملائكة ، والأنبياء ، والصور الحسنة الجميلة ، وانكشف له ملكوت السموات والأرض ، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه ، كما قال النبى ﷺ : « **زويت لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها** »[1] وقال الله عز وجل : ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات**

(١) مسلم : كتاب الفتن ، حديث رقم ١٩ . وأبو داود : كتاب الفتن ، باب ١ . والترمذى : كتاب الفتن ، باب ١٤ . وابن ماجه : كتاب الفتن ، باب ٩ . وأحمد : الجزء الخامس ؛ ص ٢٧٨ ، ٢٨٤ ؛ والجزء الرابع ، ص ١٢٣ .

والأرض ﴾[1] . لأن علوم الأنبياء عليهم السلام كلها كانت من هذا الطريق ، لا من طريق الحواس ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ﴾**[2] ، معناه : الانقطاع عن كل شيء ، وتطهير القلب من كل شيء ، والابتهال إليه سبحانه وتعالى بالكلية .

وهو طريق الصوفية[3] فى هذا الزمان . وأما طريق التعليم ، فهو طريق العلماء . وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة ، وكذلك علم الأولياء ؛ لأنه وقع فى قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾**[4] .

---

(١) الأنعام : ٧٥ .

(٢) المزمل : ٨ .

(٣) يلاحظ أن طريق الصوفية الذى يشير إليه الغزالى هنا هو الذى يمثله صوفية معتدلون فى آرائهم وسلوكهم ؛ حيث يربطون بين تصوفهم وبين الكتاب والسنة بصورة واضحة ، وإن شئت قلت : يزنون تصوفهم دائماً بميزان الشريعة ، وكان بعضهم من علمائها المرموقين .

أما التصوف المنحرف عن الكتاب والسنة فلا يقصده الغزالى هنا مطلقاً ، وأعنى به التصوف الشطحى والتصوف الفلسفى ؛ فهذان النوعان الآخران من التصوف لاشك فى انحرافهما عن صفاء تعاليم الإسلام ؛ ذلك أن أصحابها استسلموا لأحوال الفناء ، ونطقوا بعبارات غريبة ، عرفت بالشطحيات . وكانت لهم تصورات لعلاقة الإنسان بالله كالاتحاد والحلول ، وقال بعضهم بوحدة الوجود والوحدة المطلقة ، وتصوفهم لا يخلو من بعض المنازع (الميتافيزيقية) فى صورة بسيطة .

إذن فإننا نستطيع أن نقسم التصوف – بوجه ما – إلى قسمين : أحدهما الملتزم بالكتاب والسنة – وهو ما يقصده الغزالى هنا . وثانيهما المنحرف عن الكتاب والسنة ، وهو مالا يريده الغزالى ، بل يرفضه .

(٤) الكهف : ٦٥ .

وهذه الطريقة لا تفهم إلا بالتجربة ، وإن لم تحصل بالذوق[1] لم تحصل بالتعليم . والواجب التصديق بها حتى لا تحرم شعاع سعادتهم ، وهو من عجائب القلب . ومن لم يبصر لم يصدق ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله** ﴾[2] ، وقوله : ﴿ **وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾[3] .

---

(١) الذوق : المراد به هنا : نور عرفانى يقذفه الحق بتجليه فى قلوب أوليائه ، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره .

(٢) يونس : ٣٩ .

(٣) الأحقاف : ١١ .

فصل
مَنْ طلب وجد

ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبياء والأولياء ؛ لأن جوهر ابن آدم فى أصل الخلقة موضوع لهذا كالحديد لأن يعمل منه مرآة ينظر فيها صورة العالم ، إلا الذى صدأ فيحتاج إلى إجلاء ، أو جدب فيحتاج إلى صقل أو سبك لأنه قد تلف .

وكذلك كل قلب إذا غلب عليه الشهوات والمعاصى لم يبلغ هذه الدرجة وإن لم تغلب عليه تلك الدرجة ، كما قال النبى ﷺ : ﴿ **ما من مولود إلا يولد على الفطرة** ﴾[1] ، وقال الله تعالى : ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾[2] . وكذلك بنو آدم فى فطرتهم التصديق بالربوبية كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **فطرت الله التى فطر الناس عليها** ﴾[3] ، والأنبياء والأولياء هم بنو

(١) البخارى : كتاب الجنائز ، باب ٨٠ ؛ وتفسير سورة – الروم ، باب ١ ؛ وكتاب القدر ، باب ٣ . ومسلم : كتاب القدر ، حديث ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ . وأحمد : الجزء الثانى ، ص ٣١٥ ، ٣٤٦ .

(٢) الأعراف : ١٧٢ .

(٣) الروم : ٣٠ .

آدم ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم** ﴾[1] .

فكل من زرع حصد ، ومن مشى وصل ، ومن طلب وجد ، والطلب لا يحصل إلا بالمجاهدة : طلب شيخ بالغ عارف قد مشى فى هذا الطريق وإذا حصل هذان الشيئان لأحد ، فقد أراد الله له التوفيق والسعادة بحكم أزلى حتى يبلغ إلى هذه الدرجة .

(١) الكهف : ١١٠ .

فصل
ما هى أعظم اللذات ؟

إن اللذة والسعادة لابن آدم – معرفة الله سبحانه وتعالى .

اعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شيء ما خلق له ؛ فلذة العين فى الصور الحسنة ، ولذة الأذن فى الأصوات الطيبة ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة . ولذة القلب خاصة بمعرفة الجوارح بهذه الصفة . ولذة القلب خاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه مخلوق لها .

وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به ، مثل لعبة الشطرنج ، إذا عرفها فرح بها ، ولو نهى عنها لم يتركها ولا يبقى له عنها صبر . وكذلك إذا وقع فى معرفة الله سبحانه وتعالى ، وفرح بها ، ولم يصبر عن المشاهدة ؛ لأن لذة القلب المعرفة .

وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر . ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح ، ولو عرف الملك لكان أعظم فرحاً .

وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى ؛ لأن شرف كل موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم آثار صنعته ؛ فلا معرفة أعز من معرفته ، ولا لذة أعظم من لذة معرفته ، وليس منظر أحسن من منظر حضرته .

وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس ، وهى تبطل بالموت .

ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب ، فلا تبطل بالموت ؛ لأن القلب لا يهلك بالموت ، بل تكون لذته أكثر ، وضوؤه أكبر ؛ لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء .

فصـل
النفس مختصرة من العالم

واعلم أن نفس ابن آدم مختصرة من العالم ، وفيها من كل صورة فى العالم أثر منه ؛ لأن هذه العظام كالجبال ، ولحمه كالتراب ، وشعره كالنبات ، ورأسه كالسماء ، وحواسه مثل الكواكب . وتفصيل ذلك طويل .

وأيضاً فإن فى باطنه صناع العالم ؛ لأن القوة فى المعدة كالطباخ ، والتى فى الكبد كالخباز ، والتى فى الأمعاء كالقصار[1] ، والتى تبيض اللبن وتحمر الدم كالصباغ . وشرح ذلك يطول .

والمقصود أن تعلم كم فى باطنك من عوالم مختلفة كلهم مشغولون بخدمتك ، وأنت فى غفلة عنهم ، وهم لا يستريحون ، ولا تعرفهم أنت ، ولا تشكر من أنعم عليك بهم !!

---

(١) القصّار : المبيضُ الثياب . وهو الذى يهيىء النسيج بعد نسجه ببله ودقه بالقصرة .

فصل
فى معرفة تركيب الجسد ومنافع الأعضاء التى يقال عنها فى علم التشريح

وهو علم عظيم ، والخلق غافلون عنه ، وكذلك علم الطب . فكل من أراد أن ينظر فى نفسه وعجائب صنع الله تعالى فيها يحتاج إلى معرفة ثلاثة أشياء من الصفات الإلهية :

الأولى : أن يعرف أن خالق الشخص قادر على الكمال ، وليس بعاجز ، وهو الله سبحانه وتعالى . وليس عمل فى العالم بأعجب من خلق الإنسان من ماء مهين[1] ، وتصوير هذا الشخص بهذه الصورة العجيبة ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه** ﴾[2] ؛ فإعادته بعد الموت أهون عليه ؛ لأن الإعادة أسهل من الابتداء .

الثانية : معرفة علمه سبحانه وتعالى ، وأنه محيط بالأشياء كلها ؛ لأن هذه العجائب والغرائب لا تمكن إلا بكمال العلم .

---

(١) ماء مهين : أى مَنِىّ ضعيف حقير .
(٢) الإنسان : ٢ .

الثالثة : أن تعلم أن لطفه ورحمته وعنايته متعلقة بالأشياء كلها ، وأنها لا نهاية لها ؛ لما ترى فى النبات والحيوان والمعادن من سعة القدرة وحسن الصور والألوان .

فصـل
فى تفصيل خلقة بنى آدم

لأنها مفتاح معرفة الصفات الإلهية ، وهو علم شريف . وذلك معرفة عجائب الصنائع الإلهية ، ومعرفة عظم الله – سبحانه وتعالى – وقدرته .

وهو مختصر معرفة القلب ، وهو علم شريف ؛ إذ هو معرفة الصنائع الإلهية ؛ لأن النفس كالفرس ، والعقل كالراكب ، وجماعهما الفارس . ومَنْ لم يعرف نفسه ، وهو يدعى معرفة غيره ، فهو كالرجل المفلس الذى ليس له طعام لنفسه وهو يدعى أنه يقوت فقراء المدينة ، فهذا محال .

فصـل
متى تفضل البهائم ابن آدم ؟

إذا عرفت هذا العز ، والشرف ، والكمال ، والجمال ، والجلال ؛ بعد أن عرفت جوهر القلب أنه جوهر عزيز ، قد وهب لك ، وبعد ذلك خفى عنك .. فإن لم تطلبه ، وغفلت عنه ، وضيعته ، كان ذلك حسرة عظيمة عليك يوم القيامة ؛ فاجتهد فى طلبه ، واترك أشغال الدنيا كلها .

وكل شرف لم يظهر فى الدنيا ، فهو فى الآخرة فرح بلا غمّ ، وبقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، ومعرفة بلا جهل ، وجمال وجلال عظيمان .

وأما اليوم ، فليس شيء أعجز منه ؛ لأنه مسكين ناقص . وإنما الشرف غداً ، إذا طرح من هذه الكيمياء على جوهر قلبه ، حتى يخلص منه شبه البهائم ، ويبلغ درجة الملائكة . فإن رجع إلى شهوات الدنيا ، فضلت عليه البهائم يوم القيامة ؛ لأنها تصير إلى التراب ، ويبقى هو فى العذاب .. نعوذ بالله من ذلك ، ونستجير به ، وهو نعم المولى ونعم النصير . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سلسلة

اخترت لك من التراث

صدر منها :

١ ــ الثبات عند الممات

للحافظ أبى الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى .
تحقيق : عبد اللطيف عاشور .

٢ ــ فتاوى النساء

شيخ الاسلام ابن تيميه .
تحقيق : إبراهيم محمد الجمل .

٣ ــ يوم الفزع الأكبر

للامام القرطبى .
تحقيق : محمد إبراهيم سليم .

٤ ــ فتاوى رسول الله ﷺ

للامام الجليل ابن قيم الجوزية .
تحقيق : مصطفى عاشور .

٥ ــ قصة السحر والسحرة فى القرآن الكريم

للامام محمد الرازى فخر الدين
تحقيق : محمد إبراهيم سليم .

٦ ــ طبائع النساء

للفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى .
تحقيق : محمد إبراهيم سليم .

٧ ــ تفسير الاحلام

للامامين الجليلين
ابن سيرين والنابلسى .
تحقيق : إبراهيم محمد الجمل .

٨ ــ المنهيـــات

لأبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى .
تحقيق : محمد عثمان الخشت .

٩ ــ نزهة الجلساء فى أشعار النساء .

للامام جلال الدين السيوطى
تحقيق : عبد اللطيف عاشور .

١٠ــ تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين

لأحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسى .
تحقيق : محمد إبراهيم سليم .

١١ــ غرائب وعجائب الجن

للشيخ العلامة المحدث بدر الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الله الشبلى الحنفى .
تحقيق : إبراهيم محمد الجمل .

١٢ــ التوهم رحلة الإنسان إلى عالم الآخرة .

للحارث بن أسد المحاسبى .
تحقيق : محمد عثمان الخشت .

١٣ــ مختصر الطب النبوى .

للحافظ الامام جلال الدين عبد الرحمن أبى بكر السيوطى
تحقيق : إبراهيم محمد الجمل .
تحقيق : نشأت المصرى .

١٤ــ السراج الوهاج فى الاسراء والمعراج .

لأبى إسحق محمد بن إبراهيم النعمانى الشافعى .
تحقيق : عبد القادر أحمد عطا .

١٥ــ فهم الصلاة .

للحارث بن أسد المحاسبى .
تحقيق : محمد عثمان الخشت .

١٦ــ مختصر إغاثة اللهفان .

لابن غانم المقدسي .
تحقيق : إبراهيم محمد الجمل .

١٧ــ علامات يوم القيامة .

للحافظ ابن كثير الدمشقى .
تحقيق : عبد اللطيف عاشور .

١٨ــ الرزق الحلال

للحارث بن أسد المحاسبى .
تحقيق : محمد عثمان الخشت .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
دراسة وتحقيق	٧
أولا : المؤلـف	٩
روح عصـره	٩
معالم حياتـه	١٠
مؤلفاتـه	١٣
ثانيا : الكتـاب	١٥
التمييز بين النص العربى والنص الفارسى	١٦
تاريخ تأليفه	١٦
مضمون الكتاب	١٧
ترجمات للكتاب	١٨
منهج التحقيق	١٩
كيمياء السعـادة	٢١
فصل فى معرفة النفس	٢٥
فصل كيف تعرف نفسك ؟	٢٩
فصل ما حقيقة القلب ؟	٣١
فصل لماذا خلق القلب ؟	٣٣
فصل معرفة عساكر القلب	٣٤
فصل فى معرفة القلب وعسكره	٣٥

الموضوع	الصفحة
فصل وظيفة القلب	٣٧
فصل ثلاثة أشياء تُبنى عليها السعادة	٣٩
فصل أحوال القلب مع عسكره	٤٠
فصل الأخلاق الحسنة والأخلاق القبيحة	٤١
فصل هل الصور تابعة للمعانى ؟	٤٣
فصل فى عجائب القلب	٤٥
فصل القلب مثل المرآة	٤٦
فصل متى يُحجَب القلب عن مطالعة عالم الملكوت ؟	٤٧
فصل متى يطالع القلب عالم الملكوت ؟	٤٧
فصل مَنْ طلب وجد	٥١
فصل ما هى أعظم اللذات ؟	٥٣
فصل النفس مختصرة من العالم	٥٥
فصل فى معرفة تركيب الجسد ومنافع الأعضاء التى يقال عنها فى علم التشريح	٥٦
فصل فى تفضيل خلقة بنى آدم	٥٨
فصل متى تفضل البهائم ابن آدم ؟	٥٩

رقم الايداع ٣٤ ٢٥/٨٧